الأبعاد الثقافية واللغوية في جهود أعلام المفسرين بالجنوب الجزائري

تفسير "قطوف دانية" للشيخ الأخضر الدكمة أنموذجا

أ.د /بشير مولاي لخضر
Bachir.ossama@gmail.com
د.نورة حاج قويدر
Noura47hadj@gmail.com

ملخص:

ليس التفسير والتأويل فعالية منغلقة على النص،ولا هما في الواقع ممارسة أحادية الجانب ،بقدرما أنهما تمثيل للهوية الثقافية واللغوية في جدلها مع التاريخ والواقع،بالقدر الذي يفصح عن ثوابت تجسد معنى الخصوصية رغم ،المرونة التي تستوعب بها كل من الثقافة واللغة القومية التحولات .

والتفسير القرآني واجهة يتكرس معها هذا البعد الثقافي واللغوي،وبخاصة داخل النظام البياني، بصورة ينعكس معها توجه نحو ترسيخ قيم الجماعة في الجانب الثقافي، وتوجيه لطرائق العربية الفصيحة في الأداء وكشف عن جمالية الخطاب ،وآفاق الدلالة القريبة والمرجحة من خلال الاحتكام والاستحضار للنماذج "الشواهد" المعضدة لها.

ومن هنا تتجلى خصائص النظام البياني داخل حقل التفسير ،من خلال انعكاس قيم ثقافية ولغوية مميزة يترجمها التلقي الخاص المستند إلى مبادئ تحكم التأويل وتوجهه ،وبصورة يتأكد فيها تفاعل النص على السياق بمختلف أنواعه،والمقاصد المعلومة وأوليتها في التأويل عند كل حاجة.

ومن هنا تعالج هذه الورقة إشكالية عامة مضمونها:كيف أسهم التفسير القرآني في تكريس القيم الثقافية واللغوية في بعديهما العربي والإسلامي؟ وكيف ينعكس ذلك من خلال إسهامات اعلامه في الجنوب الجزائري من خلال عينة هي تفسير (قطوف دانية من سور قرآنية) للشيخ الأخضر الدهمة.

Résumé:

Les applications linguistiques dans les livres de patrimoine arabe.
(Approche didactique)

Cette étude cherche dans la nature des applications linguistiques chez les saveurs grammairiens arabes et leurs approches dans la construction des exercices linguistiques pour effectuer un but éducatif. les applications linguistiques signifient les exercices didactiques qui se composent du niveau phonologique, morphologique, lexicale et grammaticale (Syntaxe), avec des modèles et d'analyse des exemples des exercices effectués par les savants de grammaires arabe dans leurs livres exp: Elmubarad dans son livre Elmuqtadab , et Ibn malek dans Elalfiah , et Ibn Jinni dans les propriétés, et les questions exercent la disposition d'Ibn Asfour . Et d'autres….

En conclusion, d'étude comprenait le point de vue des chercheures linguistiques de ces applications et des exercices d'évaluation et la comparaison des exercices contemporaine, mettant en évidence la pertinence du processus d'acquisition des apprenants

مدخل:

إن التفسيرَ القرآني واجهةٌ يتكرسُ معها البعدُ الثقافيُ واللغويُ، وبخاصةٍ داخلَ النظامِ البياني، بصورةٍ ينعكسُ معها تَوَجهٌ نَحوَ تَرسيخِ قيمِ الجماعةِ في الجانب الثقافي، وتوجيهِ لطرائقَ العربيةِ الفصيحةِ في الأداءِ وكشفِ عن جماليةِ الخطابِ وآفاقِ الدلالةِ القريبةِ والمرجحةِ من خلالِ الاحتكامِ والاستحضارِ للنماذجِ أو الشواهد المعْضَدَةُ لها.

وفي هذه الورقة البحثية سعينا إلى الكشف عن الكيفية التي أسهم من خلالها التفسير القرآني في تكريس القيم الثقافية واللغوية في بعديهما العربي والإسلامي؟ وكيف انعكس ذلك من خلال إسهامات اعلامه في الجنوب الجزائري من خلال عينةٍ هي تفسيرُ قطوفُ دانيةُ من سور قرآنية للشيخ الأخضر الدهمة؟.

أولا: الأبعاد اللغوية في تفسير قطوف دانية:

نريد بالأبعاد اللغوية في هذا المقام الإحالة على طبيعة النظام المعرفي الذي يصدر عنه الشيخ الأخضر الدهمة في تفسيره قطوف دانية، بوصف ذلك النظام مرجعية ثقافية تكتسب خصوصيتها من خلال مقابلتها بأنظمة وحقول أخرى، على منوال النظام العرفاني و النظام البرهاني ولتحقيق هذا المبتغى ،يجب الوقوف على نوع التفسير الذي ينتمي إليه قطوف دانية والنظام المعرفي الذي ينتظم هذا النوع.

1 **- النظام البياني:**

يذهب الجابري في بنية العقل العربي إلى واقع أن النظام المعرفي البياني يمثل كيانا تتلاحم فيه علوم العربية تلاحما عضويا لأنها تصدر جميعها عن منهج واحد ورؤية واحدة،وهو يعبر عن هذا المعنى ويؤكد عليه في أكثر من مناسبة،ومن مظاهر ذلك ما نلمسه في تعريفه للبيان كنظام:... ونحن نقصد بالبيانيين هنا جميع المفكرين الذين أنتجتهم الحضارة العربية

الإسلامية والذين كانوا - أو ما يزالون - يصدرون في رؤاهم و طريقة تفكيرهم عن الحقل المعرفي الذي بلورته وكرّسته العلوم العربية الإسلامية الاستدلالية الخالصة، ونعني بها النحو والفقه والكلام والبلاغة.وبالأخص منهم الذين ساهموا في تقنين هذا الحقل المعرفي...إنهم بكلمة واحدة علماء البيان من لغويين ونحاة وبلاغيين وعلماء أصول الفقه وعلماء الكلام، سواء كانوا معتزلة أو أشاعرة أو حنابلة أو من الظاهرية أو من السلفيين، قدماء ومحدثين.إن هؤلاء جميعا ينتمون إلى حقل معرفي واحد يؤسسه نظام معرفي واحد هو النظام المعرفي البياني... كما أنهم عملوا جميعا،كل في ميدان اختصاصه وضمن أصول مذهبه البياني على المساهمة بهذه الدرجة أو تلك في صياغة نظريات في البيان، فقهية أو نحوية أو بلاغية أو كلامية...[1]

إن هذا النص ـ على طوله ـ يساق هنا لبيان طبيعة النظرة التي يعبر عنها الجابري في توكيده على المنحى الشمولي في النظر إلى تلك العلوم بوصفها جميعها تنتمي إلى حقل واحد هو "الحقل البياني"؛ ولكن: ما هي حقيقة هذا الحقل؟ وما هي مرتكزاته؟

من الثابت أن التأويل ـ ومع كونه ظاهرة لغوية تتصل باللفظ والمعنى ـ لم يستعمل ابتداء باعتباره مصطلحا في الدراسات اللغوية، بقدر ما استعمل في الدراسات الإسلامية، وقد بدا هذا المشهد رغم ذلك مبررا في حدود أن العلوم اللغوية قامت أساسا من أجل بيان المعاني و المقاصد التي ينص عليها الذكر الحكيم.

فهذا الحقل البياني يستند أساسا إلى بنية الخطاب في قيامه على ثنائية اللفظ والمعنى وطرائق العربية في تأدية المعاني بوجوه مخصوصة؛ ولأجل ذلك كله فإن التأويل كممارسة يقوم أساسا على استحضار اللغة العربية في تجلياتها والاحتكام إليها معجما ونحوا وصرفا وأسلوبا... بوصفها مرجعا، يشمل ذلك النحوي والبلاغي والفقيه والأصولي والمتكلم نفسه ومن هنا تتبدى أهمية الشاهد في عملية التأصيل في هذا الحقل. كما تتأكد أهمية

القرينة في التوجيه إلى هذه الدلالة أو تلك. وتبعا لهذه الاعتبارات ـ وأخرى غيرها تتمثل في نفي شبهة التعارض ـ يقسم التأويل إلى صحيح وفاسد

ففي نطاق علم الأصول يعرف محمد بن إدريس الشافعي(ت 204 هـ) البيان يقوله: اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع .فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض مختلفة عند من يجهل لسان العرب.[2]

وبالإضافة إلى تحديده درجات البيان في القرآن الكريم ومستوياته ممثلة في: 1 ـ بيان لا يحتاج إلى بيان وهو ما أبانه الله لخلقه نصا. 2 ـ بيان في بعضه إجمال فتكفلت السنة ببيان ما يحتاج منه إلى بيان. 3 ـ بيان ورد كله في صورة المجمل وقد تولت السنة تفصيله. 4 ـ بيان السنة وهو ما استقلت به هي نفسها ومن الواجب الأخذ به لأن الله قد فرض طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. 5 ـ بيان الاجتهاد ويؤخذ بالقياس على ما ورد فيه نص من الكتاب والسنة. يضيف الشافعي إلى ما سبق أصلا رابعا هو الإجماع يقول: فكنا نقول بما قالوا اتباعا لهم. ونعلم أنهم إذا كانت سنن رسول الله لا تعزب عن عامتهم، وقد تعزب عن بعضهم. ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله ولا على خطأ، إن شاء الله.[3] ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ... وإنما تكون الغفلة في الفرقة،وأما الجماعة فلا يمكن أن يكون فيها كافة غفلة عن معنى كتاب و لا سنة ولا قياس إن شاء الله.[4]

وتأكيدا على اللغة والحاجة إلى الإحاطة بطرائقها في أداء المعاني لتبين كلام الله تعالى وهو المنزل بلسان عربي مبين يقرر الشافعي: إنما خاطب الله بكتابه العرب على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها:اتساع لسانها،وإن فطرته(القرآن) أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر ويستغني بأول هذا منه عن آخره. و عاما

ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره .وتبتدئ (العرب) الشيء من كلامها يبين أول لفظه عن آخره. وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله . وتكلم الشيء بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ كما تعرف الإشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها، وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة.[5]

2-حدود الأبعاد اللغوية في التفسير البياني:

2.1-التفسير البياني:

يعرّف التفسير البياني بأنه المنهج الذي تدور مباحثه حول بلاغة القرآن في صوره البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل ووصل وفصل وما يتفرع عن ذلك من حقيقة أو مجاز.[6]

ونود هنا مع ما سبق الإلفات إليه أننا ننظر إلى البيان هنا في إطاره المعرفي الشامل ،غير منحصر في علوم البلاغة العربية ومباحثها بقدر ما يعد عنوانا جامعا لمختلف تلك العلوم العربية في حقولها المتنوعة.

ومن هنا فالبيان في استعمالنا لا يرد مقابلا للمنهج الأدبي أو اللغوي أو العلمي او الاجتماعي...إلخ بقدر ما يشخص مقابلا لنظامين آخرين هما :النظام العرفاني (الصوفي والباطني) متحققا في التفسير مرادفا للتفسير الإشاري،ثم النظام البرهاني(الفلسفي) متحققا من خلال ما يعرف بالتفسير العقلي

2.2- مستويات التأويل وإجراءاته في قطوف دانية:

أ- **<u>التأويل المعجمي:</u>**

ونقصد به في هذا المقام أن تتوجه عناية المفسر إلى البحث في محتملات لفظ مفرد في الآية من القرآن ،وترجيح معنى من المعاني المتبادرة بقرينة تعضده ؛و مع أن بعض التعريفات السابقة للتأويل تدرج

تأويل دليل المراد" أي اللفظ في نطاق التفسير، بينما تخص التأويل بالمعنى أو التركيب الكلي، وكأنها بذلك لا ترى التأويل سوى في المعاني المركبة؛ فإن تعريفات أخرى،ترى في بيان وضع اللفظ حقيقة أو مجازا تفسيرا كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر،في حين أن تفسير باطن اللفظ يعد تأويلا على غرار تأويل الحي بالمؤمن والميت بالكافر.[7].

ومن صور تجاوز مقتضى الظاهر في التفسير النبوي للقرآن الكريم، ما رواه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم"(سورة الأنعام: 82) شق ذلك على المسلمين، فقالوا:يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه؟ قال:ليس ذلك إنما هو الشرك،ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم"(سورة لقمان: 13) فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب والصحابة رضي الله عنهم كانوا على الأغلب يفهمون منه المعنى الظاهر وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين لهم ما خفي عليهم مما أراده الله بكلامه وقد أمره تعالى بذلك كما في قوله: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون"(سورة النحل: 44).فالصحابة إذا فهموا المعنى العام للظلم لأنه اسم جامع للمعاصي كلها، فبين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن المراد به في الآية هو الشرك على التخصيص[8].

ونلمح هذا المظهر في قطوف دانية" حين توقف المفسر عند لفظة (إمام) في قوله تعالى في سورة (يس): ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين"[9].قال: والإمام – معناه العام- هو الذي يأتم به غيره...فالرسول إمام لأن المسلمين يأتمون به والقرآن العظيم إمام المسلمين والمسلمات ومن استعمالات القرآن الكريم للإمام بمعنى الطريق قوله تعالى: ﴿وإنهما لبإمام مبين"[10] (سورة الحجر: 79).وأخيرا يأتي الإمام بمعنى اللوح المحفوظ أو علم الله الأزلي وهو المراد في هذه الآية[11].فقد تتبع الشيخ مدلولات إمام حتى وصل إلى المعنى المراد بها في الآية وواضح أن مدلولها بأصل الوضع في اللغة لا يحيل بنفسه على المراد فكان ينبغي لزاما استنباط ما يفهم منها،

وبدهي أن تأول اللاحق قد لا يتجاوز متابعة السابق على معنى استنبطه كما قد يتهيأ أن يستخرج من اللفظ معنى تقره اللغة ولا يتعارض مع مقاصد الشريعة.

ب - **التأويل النحوي:**

التأويل كما ورد عند النحاة تقنية يلجأ إليها للتوفيق بين القاعدة والمثال[12] وحدوده – كما يروي السيوطي عن ابن حيان في شرح التسهيل - "أن التأويل إنما يسوغ إذا كانت الجادة على شيء ثم جاء شيء يخالف الجادة فيتأول".

فالقاعدة أن لكل معمول عاملا ،فينبغي وفق ذلك تحقيق موقع المعمول إعرابا بتبين العامل فيه بما ينسجم مع مضمون الخطاب و القصد ولا يتعارض معهما.

ومن معالم ذلك توقف الشيخ عند قوله تعالى في سورة يس: ﴿ والقمرَ قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم".قال: (و القمر) معطوف على (الشمس) مرفوع في قراءة نافع،وقرئ منصوبا على أنه مفعول بفعل محذوف يفسره ما بعده،فهو من باب الاشتغال أي قدّرنا القمرَ وهي قراءة عاصم.[13]

فقد تؤول للقمر عامل محذوف حتى يتسق مع القاعدة ولا يشذ عنها،وهو فعل يفسره المذكور بعده على قراءة النصب، ولولا ذلك لما تهيأ أن يعرف وجه نصبها.

ومن هذه النماذج أيضا توقف الشيخ عند قوله تعالى: ﴿ سلام قول من رب رحيم"[14].قال: من وجوه الأعراب لكلمة سلام أنها مبتدأ و(قولا) مفعول مطلق مؤكد لعامله المحذوف...وتقدير الكلام :سلام – يقال لهم قولا- من رب رحيم. فنصب سلام غير متأت إلا أن تكون معمولة ،ولما كان هذا العامل غير ظاهر في السياق تؤول (قدّر) بفعل محذوف هو يقال.

ج- **التأويل البياني(البلاغي):**

ومجاله حمل العبارة على معنى بعيد غير مصرح به، كما هو الشأن في الكناية مثلا أو ما هو في منزلتها،أو حملها على المجاز بما يقتضي معنى

حقيقيا غير مراد ومعنى مجازيا هو المراد،ويجب كما هي الحال فيما سبق توفر قرينة توجه إلى المقصد لفظية كانت أم حالية، ولعل الآلية أو ما يطلق عليه بالإجراء وإن أظهر استقرارا في هذا المقام فإنه من المتعذر الاحتكام دوما إلى دلالة عرفية لتعبير مجازي أو كنائي فعبارة: عانقت الأسد مثلا لا تحيل على الشجاعة والفروسة في شخص الداخل إلا من منطلق افتراض سياق المدح والتمجيد ،على أن هذه العبارة نفسها يمكن أن تستخدم في مقام السخرية ليتحول المعنى كليا ومن هنا تنشأ الحاجة إلى الاقتراب من سياق العبارة وربطها بالموقف.

ومن صور هذا التأويل في قطوف دانية توقف الشيخ عند قوله تعالى من سورة يس: ﴿لتنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين"[15]. قال:(من كان حيا): كان –هنا – مجردة من الزمان.والحياة المفهومة من (حيا) هي في معناها العام استقرار الحياة في الأبدان، وضدها موت الأبدان والمراد بها هنا – والله أعلم – حياة القلوب لأن الذين يتمتعون بحياة قلوبهم هم المنتفعون بالإنذار من حيث أنهم يفتحون قلوبهم لتدبر ما يسمعون فيقبلون ما هو حق ويرفضون ما هو باطل بخلاف أموات القلوب الذين لا يتأثرون بما يسمعون وإذا سمعوا لا يعقلون...والدليل على أن المراد بالحياة في الآية الحياة القلبية أنه جعل قوله (ويحق القول على الكافرين) في مقابلة(من كان حيا).[16]

والإجراء السابق يحيل على أن التأثر والوعي والاستجابة للحق حياة على سبيل التشبيه والقصر،فكأنه قال أن من لا يتعظ ولا يتأثر بصوت الحق ولا ينتفع به هو من الأموات أي شبيه بهم وإن بدا في صورة الأحياء.

ثانيا: الأبعاد الثقافية في تفسير (قطوف دانية) :

1-في مفهوم الثقافة في الفكر العربي والغربي:

تحيل كلمة ثقافة في التراث العربي على عدة معان، تنتظم الحسّيّ والمعنويّ على السواء، متوافقة في ذلك مع ما عرفته حياة العرب أنفسهم من صور التطور والتحول،فهي في الجانب الأول تدل على: تقويم المعوجّ

من الرماح،وقد يشمل تقويم المعوج السلوك فتجتمع الدلالتان الحسية والمعنوية،والملاعبة بالسيف،والخصام والجِلاد،والإدراك والظفر.[17]

وحين تهيأ للعرب قدر من تطور في المدنية، وتحول في نمط الحياة ،وارتقاء في أسلوبها مجسدا طابع التحضر،اتسعت كلمة ثقافة في استعمالاتهم لتدل على جانب من التقدّم الفكري مثل ضبط المعرفة المتلقاة،وسرعة التعلم .فالثقافة تعني التقويم والحمل على الاستقامة في الفكر والسلوك.[18] ومن هنا قيل ثَقِف الشيء ثَقْفا وثِقافا وثُقُوفة :حذقه .ورجلٌ ثَقْفٌ وثَقِفٌ وثُقُفٌ:حاذقٌ وفهِم[19] وورد من المجاز : تثقّف فلان على فلان ،تأدّب.ويقال تثقّف على فلان وفي مدرسة كذا.[20]

وبالرغم من أن تعريف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليسكو) يقدّم الثقافة على أنها : تشمل النشاط الفكري والفني بمعناهما الواسع، وما يتصل بهما من مهارات،أو يعين عليهما من وسائل،فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرى متأثرة بها،معينة عليها ،مستعينة بها.[21] وبالرغم من أن المعجم الفلسفي أيضا يرد الثقافة إلى كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو المجتمع ،وتشتمل على المعارف والمعتقدات، والفن،والأخلاق وجميع القدرات التي يسهم بها الفرد في مجتمعه.ولها طرق ونماذج علمية وفكرية وروحية ،ولكل جيل ثقافته التي استمدها من الماضي وأضاف إليها ما أضاف في الحاضر، وهي عنوان المجتمعات البشرية.[22]

ومع أن تعريفات الثقافة في الفكر الغربي تضافرت لتربو عن 160 تعريفا وفق مداخل متعددة ومتنوعة تنتظم التاريخي والسيكولوجي، والبنيوي والتكويني[23]... فإن من أبرز تلك التعريفات مما يلتقى ويتقاطع في الواقع مع التعريفين السابقين ما جاء على لسان الأنتربولوجي الإنجليزي (إدوارد تايلور) في كتابه الثقافة البدائية (1871 م) بقوله : الثقافة هي ذلك الكل المركب المشتمل على المعارف، والمعتقدات،

والفن،والقانون،والأخلاق،والتقاليد، وكل القابليات والعادات الأخرى،التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع.[24] وإذا كان تايلور يقدم هذا المنظور للثقافة على أنه المنظور واقعي، فإن كروبير وكلوكهون الموسومين بأنهما من أكبر رواد المنهج التجريدي يقدمان الثقافة بعد تحليل لأكثر من 160 تعريف بأنها نسق تاريخي مستمد من الأساليب الظاهرة والكامنة في الحياة التي يشارك فيها كل أعضاء الجماعة أو بعضهم.[25]

بالرغم من كل ما سبق، يستوقفنا تعريف لافت في الفكر العربي الحديث، للمفكر والفيلسوف الجزائري مالك بن نبي (1905 م- 1973م) في كتابه (مشكلة الثقافة) يلخص فيه مفهوم الثقافة بوصفها: مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية،التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه.[26]

إن الثقافة هنا تكتسب صفة المرجع بوصفه دستور القيم الخلقية والاجتماعية التي ينشأ عليها الفرد داخل مجتمع معين،من خلال مختلف المؤسسات الرسمية والعرفية،وعبر القنوات العديدة والخبرات المتراكمة لشكل الذي تنطبع به في وجدان الفرد وتمنحه مقوما وجوديا مميزا وخاصا ينعكس في نشاطاته الفنية والأدبية والعلمية والفلسفية وعلاقاته الاجتماعية،لتكتسب الثقافة بذلك طابع البصمة المنعكسة في كل نشاط أو سلوك وتعبر في كل تجل عن خصوصية المنظور والرؤية ومرجعياتها. ومن هنا فإن التركيز على القيم قبل المعارف هو تركيز على النسق المضمر في تلك المعارف والمهارات، والأصول التي تنطلق منها قبل الالتفات إلى موضوعات تلك النشاطات وحدودها.

وفق المنظور السابق لمفهوم الثقافة باعتبارها المحيط الذي يعكس حضارة معينة،والذي يتحرك فيه الإنسان المتحضر، بالمعنى الواسع للمحيط الذي ينتظم طبقات المجتمع كافة- حسب مالك بن نبي- تستوقفنا في قطوف دانية محطات عُني فيها المؤلف بفكرة التوجيه الذي يعزز به السلوك

الإصلاحي والتربوي من جهة، ويؤطر به خصوصية الشخصية المسلمة في علاقتها بالظواهر والمفاهيم بالقدر الذي تصنع به تميزا واستقلالية من جهة، وتحمي به ذاتها من الضلال والانحراف بما يجنبها الخسران والبوار في الحياة الآخرة .وهو ما يحيل على مفهوم الثقافة ومعناها في كنف التربية من منطلق أنه إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتمدّن،فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية.[27]

ومن تلك القيم الثقافية التي حرص المؤلف على التنبيه إليها وإلى أهميتها قيمة الوقت لا بوصفه مفهوما رياضيا مجردا،ولكن باعتباره مقوما من مقومات النهضة والعمران ،ومجالا للحركة الدائبة التي لا تعرف النكوص، فينبه المؤلف إلى خطورته وأهميته في حياة الأفراد والجماعات بقوله: وقيمة الوقت جاءته من حيث إن أي فترة منه مضت لن تعود بخلاف المتاع الدنيوي فقد يعود ،وربما بأوفر مما فات.ومن ثم قال العرب في أمثالهم الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ....قالوا هذا الكلام حين كان الوقت يتسع لواجباتهم البسيطة ،ولا يهتمون بغير الساعات والدقائق،أما الآن وقد تطورت الحياة في شتى الميادين ،وكثرت الأشغال،وعجز الوقت عن استيعابها، وأصبحت الثواني محسوبا لها حسابها في النجاح او الفشل، والمغنم والمغرم ،فيجب علينا أن نحرص على الوقت حرص الرجل الشحيح على المال النفيس وأن نعُد الحياة هي الوقتَ نفسه....[28]

وقد رتب مالك بن نبي الوقت شرطا ثالثا من شروط النهضة،وعوّل عليه مقوما ركينا من مقوماتها ونبه إلى دلالاته الجوهرية في علاقته بحركة التاريخ،وموقعه من حياة الأمم فقال: وحينما لا يكون الوقت من أجل الإثراء ...أعني حينما يكون لازما للمحافظة على البقاء...والانتصار على الأخطار،يسمع الناس فجأة صوت الساعات الهاربة...فيتحدثون عن حينئذ عن ساعات العمل؛أعني العملة الوحيدة المطلقة التي لا تبطُل،ولا تستردّ إذا ضاعت:إنّ العملة الذهبية يمكن أن تضيع،وأن يجدها المرء بعد

ضياعها،ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطّم دقيقة،ولا أن تستعيدها إذا ضاعت.[29]

هذه عينة موجزة لمضامين ثقافية ذات طابع شمولي وعالمي في مصداقيتها،وهي في الوقت نفسه أصول إسلامية أصيلة ركينة،يحقق بها المسلم في كل عصوره تميزه وخصوصيته، وقد حرص المؤلف في كل مناسبة على استحضار تلك المضامين، والتنبيه إليها، تطلعا إلى هدف يتمثل في ربط النص بالواقع بتتبع دلالاته العميقة ، وبيان مدى قربنا أو بعدنا عنه.وقد ألفت إلى مضامين أخرى يسع الباحث تتبعها في متن الكتاب.وبخاصة ما يتعلق بالإنسان ودوره الفاعل في حركية الوجود من خلال شيء هو السعي فعبر مادة سعى نستحضر في كل مرة الإنسان في حركته ،ولكن سعى المتصلة بهدف إيجابي في الحياة تقره الشريعة هو وحده المعول عليه في الرقى الروحي والمادي للإنسان المسلم،هذا الإنسان باعتباره أول شرط من شروط النهضة.

خاتمة:

وفي حدود ما سبق يتضح أن النظام البياني قائم كما أسلفنا – إجمالا – على فكرة الاحتكام إلى المرجع والقاعدة المطردة وتقاليد العربية في النظم وإجراء العبارة، ومن هنا تتعاظم أهمية الشاهد في الاستدلال للحكم أو المعنى،كما تتعزز قيمة القرينة في التوجيه إلى هذا المعنى المحتمل أو ذاك،ورغم المنحى العقلي الذي نحاه المعتزلة في الاستدلال إلى درجة اعتبارهم العقل أول الحجتين(الكتاب والسنة) وتفريقهم الحاسم بين أدلة العقل وأدلة اللغة ؛إلا أنهم كثيرا ما كانوا يحتكمون إلى اللغة وأعرافها في التأويل والتوجيه،حتى وإن كان ذلك في الأصل احتجاجا لمبدإٍ من مبادئهم كقولهم بالتنزيه،ومن صور ذلك تأويل معتزلة القرن الثالث لقوله تعالى: ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا" (سورة النساء: 125) على أن الخليل هو الفقير حتى يتماشى ذلك مع مقام الألوهية معتمدين في ذلك على قول زهير بن أبي سلمى:[البسيط]

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالي ولا حرم أي أتاه فقير،وبذلك تنتفي شبهة التجسيم من الآية،ويصبح إبراهيم عليه السلام مجرد فقير إلى رحمة الله.[30]لأجل ذلك؛ فإن بعض الدارسين المعاصرين يخففون من حدة المواجهة وعنفها بين أهل السنة والمعتزلة لأنهم جميعهم كانوا يتقيدون بالحدود التي تسمح بها اللغة في التأويل، مما يجعل تأويلهم يبقى دائما بيانيا يقف في الطرف المقابل لنوع آخر من التأويل يخترق حدود البيان ويفرغ اللغة من دلالاتها ويحول النص القرآني إلى جملة من رموز وإشارات يضمنها أفكارا ونظريات يرجع أصلها ـ في الغالب ـ إلى الفلسفات الدينية القديمة والهرمسية منها بصفة خاصة، إنه التأويل العرفاني الذي مارسه الشيعة(الإسماعيلية خاصة) والصوفية.[31]

هوامش:

[1] نقد العقل العربي دراسة نقدية تحليلة لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009 ، ط9 ، ص13.

[2] الرسالة،محمد بن إدريس الشافعي، تح:محمود شاكر،دار الكتب العلمية،بيروت ،لبنان،د ت،ص:21 .

[3] المصدر السابق ،ص: 472 .

[4] المصدر نفسه، ص: 475 ،476 .

[5] المصدر نفسه، ص:52 .

[6] مناهج المفسرين في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق،منصور كافي،دار العلوم للنشر،د ت ،ص:85 .

[7] ينظر: تأويل الشعر،مصطفى السعدني،ص:20 وما بعدها.

[8] تفسير ابن عباس، مرجع سابق، ص: 5 .

[9] يس: 12

[10] الحجر:79

[11] قطوف دانية من سور قرآنية،الشيخ لخضر الدهمة،مطبعة مداد غرداية الجزائر،2010 م،ص:80

[12] تأويل الشعر،ص:23 .

[13] قطوف دانية،ص124 .
[14] يس:57.
[15] يس:69 .
[16] قطوف دانية: 174 .
[17] مفهوم الثقافة في الفكر العربي والغربي،جميلة بنت عيادة الشمري، https://www.alukah.net/culture/0/108159/ ص:5
[18] المرجع نفسه، ص ن.
[19] لسان العرب ،ابن منظور، مادة (ثقف)
[20] أساس البلاغة الزمخشري، تح :محمد باسل عيون السود، مادة(ثقف).
[21] مفهوم الثقافة في الفكر العربي والغربي، مرجع سابق، ص: 7
[22] ، المرجع السابق، ص: 10.
[23] المرجع نفسه، ص ن.
[24] المرجع نفسه ص 11.
[25] المرجع نفسه ص 11، 12 .
[26] مشكلة الثقافة ،مالك بن نبي،تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر،بيروت، لبنان، دار الفكر،دمشق سورية، 1420هـ - 2000م، ط4 ، ص: 74 .
[27] شروط النهضة ،مالك بن نبي،تر :عمر كامل مسقاوي ، عبد الصبور شاهين، ، دار الفكر،دمشق سورية، 1406 هـ 1986 م ص: 86.
[28] المصدر السابق ،ص: 34
[29] شروط النهضة، ص:139 ،140 .
[30] التأويل عند الغزالي.... مرجع سابق،ص:107
[31] المرجع نفسه... ،ص:30.